فلسفة المال في الإسلام ودورها في التنمية المجتمعية

عبد الهادي اباحمو
باحث ماستر المالية الإسلامية ومقاصد الشريعة بكلية متعددة التخصصات بالراشيدية - جامعة المولى إسماعيل

يقصد بالمال في الإسلام كل ما يتموَّل وينتفع به، وقد يشمل المنقولات والعقارات مما يتملكه الإنسان وتحصل له به فائدة، كما حث الإسلام في سبيل تمليكه وترويجه واكتسابه بطرق خاصة، حتى اعتبر تنميته من آليات الحركة التي خلق الله من أجلها هذه النعمة وسخرها في يد الإنسان لكي يميل بها في وجوهها القانونية.

إن البحث عن الغاية المقصودة من المال تسعفنا ضرورة وضع إشكالات معرفية قصد التفاعل معها في ثنايا هذا المقال من قبيل: كيف يمكن للمال أن ينمي المجتمع؟ وهل يلعب المال دورا مهما حقيقيا في ترسيخ قيم التوازن الاجتماعي والنفسي والاقتصادي؟ وما الحكمة الربانية من ترويج المال وتسويقه بين الأفراد والجماعات؟

في سياق الجواب على الأسئلة السابقة، نجد أن الإسلام نصَّ على تحصيل المال في آيات عديدة من القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** (الكهف: ٤٦)، كما أكدت أحاديث من السنة النبوية على وجوب استثماره في وجوهه المشروعة، وحسن تنميته بالطرق المباحة المشروعة، كتوزيعه على من له الحق بالمعروف، وإنفاقه في سبيل الله تعالى، وإمساكه عن الباطل، وقد اعتبر علماء المقاصد المال من الضروريات الخمس في الشريعة السمحاء، والتي لا يتحقق العيش بدونه، باعتبار قوته الفاعلة، ودوره المركزي في تحريك حياة الأفراد ورغباتهم التمليكية، ولا يتحقق حفظ المال إلا بجانب حفظ الدين والنفس والعرض والعقل، كما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(قلب الشيخ شاب على حب اثنين: طول الحياة وحب المال)**[1].

إن حقيقة المال في العرف اللغوي هِيَ مشتقة من مصدر موّل، كتَمَوَّلَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ مَالاً، وَمَالَ يَمَالُ: كَثُرَ مَالُهُ، وَيَقُولُونَ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ"[2]، وفي اصطلاح الفقهاء عرفه ابن العربي من المالكية بأنه: "ما تمتد إليه

[1] صحيح مسلم باب كراهة الحرص على الدنيا رح 1046 ج 2 ص 724.
[2] مقاييس اللغة ابن فارس مادة مول المجلد 5 ص 285.

الأطماع ويصلح عادة وشرعا للانتفاع به"[1]، بينما عرفته الحنفية بأنه: "ما يميل إليه الطبع، ويمكن ادخاره لوقت الحاجة"[2]،ومن هنا يتضح الفرق بين التعريفين: إذ نجد أن الحنفية لا يعتبرون المنافع أموالا كما نجدهم يعتبرون الخمر والخنزير ونحوه مما يتعامل فيه غير المسلمين من أهل الذمة أموالا، عكس المالكية والحنابلة والشافعية إذ يعتبرون المنافع أموالا، لأن مصدرها وهي الأعيان، ولا يعتبرون الخمر والخنزير أموالا بالنسبة للمسلم ولغير المسلم. إذن أين تتجلى أهمية المال؟

للمال أهمية كبيرة في تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية، ولا يمكن الاستغناء عنه، لذلك اعتبر من مقاصد الشريعة الإسلامية، بل من الضروريات الواجبة لها، وتظهر أهمية المال في: أن هذا الأخير يسد متطلبات الحياة اليومية التي يعيشها الفرد والمجتمع لولاه لم يجد الإنسان ما يقتات. قال أحد الحكماء: "لا تستهن بالمال فإن المال آلة المكارم، وعون على الدهر، وقوة على الدين، ومتألف للإخوان، وفقد المال معه قلة الاكتراث من الناس، وتتبعه قلة الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استخف به الناس جدّا"[3]، إضافة إلى ذلك يحقق للفرد وللمجتمع الأمان النفسي والصحي كذلك، أما بالنسبة للمجتمع فالمال يعد من الضروريات التي تتوفر عليها الدولة كي يكون لها اقتصادا قويًا ومزدهرًا، علاوة على ذلك تستطيع الدولة أن توفر مرافق عامة للأفراد، وتدفع رواتب الموظفين إلى غير ذلك.

إن الشارع ينظر إلى المال باعتباره من متطلبات الناس الضرورية وحاجة ملحة، فهو وسيلة أساسية للحياة الفردية والجماعية، في مختلف الأزمنة التي مرت منها البشرية، منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يعزز هذا المفهوم بقوله: **(نعم المال الصالح للرجل الصالح)**[4]، ومن هذا الحديث يتبين أن الغرض من المال هو تقوية مجودات الإنسان والحفاظ على حالته الصحية، ولهذا نجد الإمام الطاهر بن عاشور رحمه الله يقول في كتابه: (مقاصد الشريعة) "مقاصد الشريعة في التصرفات المالية خمسة، وهي: رواجها، ووضوحها، وثباتها، وحفظها، والعدل فيها"[5]، وقد فصل في كل مقصد على حده، فالمال به تقوم الحياة، ولهذا لا يمكن للإنسان أن يعيش بدون مال فبوجوده توجد الأعمال، وبعدمه يتعرض الإنسان إلى الهلاك، ولهذا أسباب عديدة،

---

[1] أحكام القرآن لابن العربي باب مسألة سرقة التافه ج 2 ص 107.
[2] المعاملات المالية أصالة ومعاصرة ج 1 ص 114.
[3] كتاب صنائع المعروف تقي مصارع السوء لمصطفى شيخ إبراهيم حقي ج1 ص1.
[4] كتاب الأدب للبيهقي ر ح 791 باب لا بأس بالغتي لمن اتقي الله عز وجل ج1 ص 320.
[5] مقاصد الشريعة للطاهر ابن عاشور الجزء الثاني ص 453.

نذكر منها: ارتفاع الأسعار داخل المجتمع مما يؤدي إلى نقص المال، بالإضافة إلى انتشار الأمراض في الفئة الفقيرة التي لم تتوفر على المال لكي تعالج الأمراض، ومن هنا نجد أن المقزيزي رحمه الله تعالى كتب كتابا سماه: (إغاثة الأمة في كشف الغمة)، تحدث فيه عن أساب غلاء المعيشة في مصر، وذكر جملة من هذه الأسباب وهي سوء التدبير، وكذلك الفساد الإداري، بالإضافة إلى كثرة الأموال داخل المجتمع.

ولتفادي كل هذه المشاكل التي يعاني منها الفرد داخل مجتمعه نلجأ إلى حلول من بينها:

- جمع الصدقات من الأغنياء وإعطاؤها للفقراء والمحتاجين.
- وضع صناديق تجمع فيها الزكاة، وتتكفّل الدولة بتوزيعها على مستحقيها.
- تسديد الديون على كل من عليه دين.

ولهذا لا يمكن للإنسان أن يعيش حياته بدون مال بسبب عدة جوانب أخرى؟

إن التوازن النفسي أساس كل شيء في الدورة المالية، لأن بعض المتطلبات أصلها من المال، لا يمكن للإنسان التخلي عنها: نذكر على سبيل المثال لا الحصر الجانب الصحي: فكل واحد منا يعلم أن للصحة دورا مهما في حياته، فإذا أصيب الشخص بمرض مثلا وذهب إلى عيادة الطبيب، وهو لا يتوفر على مال يصعب عليه ذلك، لأن الفحوصات تتطلب مبلغا من المال وكذلك الأدوية، لذا نقول إن للمال دورا مهما للفرد داخل المجتمع، بالإضافة إلى جانب آخر وهو الغذاء إذا أراد الشخص أن يحصل على صحة جيدة فلابد له من الأطعمة والأشربة المتوازنة، وكل هذا لابد أن يتوفر على المال لشراء هذه الأغذية، وإلا يتعرض جسمه للهلاك والضعف، ولهذا لا نغفل جانبا مهما وهو علاقة الإنسان بربه جل في علاه، فالإنسان لابد أن يكون له مال حتى يقوم ببعض الأعمال الخيرية التي تقربه إلى الله تعالى، من صدقة أو هبة أو وقف إلى غير ذلك.

وفي الختام فإن التنظيم الكفؤ لدورة المال في المجتمع طبقا لمقتضيات وتعاليم الشارع الحكيم أساس تحقيق التنمية، لأنه من الضروريات التي يحتاج إليها الإنسان في هذا الزمن الذي نعيش فيه من مشاكل وأزمات اقتصادية ومادية، فالمال له دور أساسي داخل الفرد والمجتمع، فبه يكون الكرم والإحسان وقضاء حاجات الناس ومساعدتهم، لذا قد نبهنا الله تعالى في آيات عديدة في القرآن الكريم، على عدم جمعه في فئة معينة، قال تعالى: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ (الحشر: ٤)، ثم حث على عدم أكل أموال الناس بالباطل في قوله جل في علاه: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ (البقرة: ١٨٨)،

بالإضافة إلى ذلك الحجر على أموال السفهاء كي لا تتعرض للضياع قال تعالى: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** (سورة النساء: ٥).